

ملخص

كان قيام الدولة العبيدية (الفاطمية) في المغرب من أهم الأحداث الفريدة الهامة في التاريخ الإسلامي؛ إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية في إقامة خلافة لهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ جاء بعد محاولات مضنية طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة. وقد تولى خلافة الدولة العبيدية خلال هذه المرحلة أربع خلفاء هم: (عبيد الله المهدي، القائم بأمر الله، المنصور بنصر الله، المعز لدين الله)، ولقد بذل هؤلاء الخلفاء الأربعة جهود كبيرة لإرساء دعائم الدولة العبيدية، وتقوية أركانها، ودعم نفوذها في المغرب. ويتناول هذا المقال دورهم في النهضة الثقافية والفكرية في المغرب خلال الفترة (٢٩٧ - ٣٦٢هـ)، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار المغرب الإسلامي.

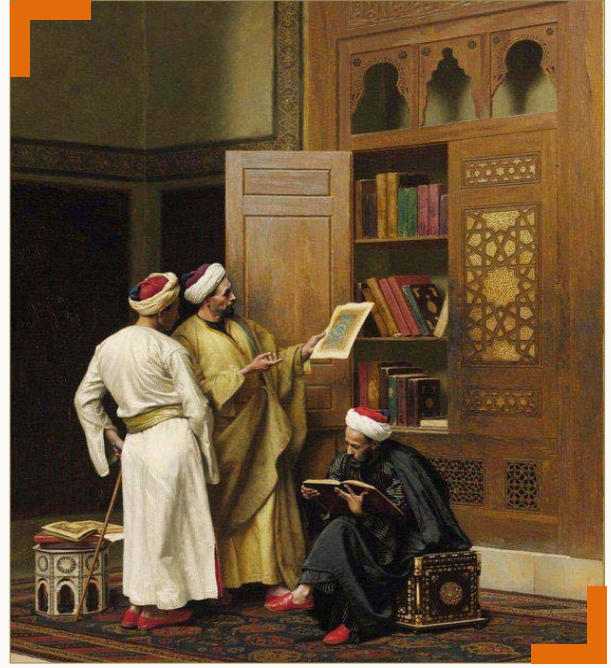
مقدمة

بدأت الدولة العبيدية في محاولة منها لتأسيس فضاء معرفي علمي على جملة من أسس النهضة الثقافية والعلمية، وهذا منذ الوهلة الأولى لتأسيس كيائها بالمغرب الإسلامي، بالرغم من اتسام الفترة التي أمضتها هذه الدولة في حكم بلاد المغرب بالتقلب وعدم الاستقرار في الكثير من الأحيان، إلا أنها بزغت من خلالها فترات صفاء وهدوء من خلال حكمة أمرائها وحيمم للعلم والعلماء، فتفتحت بذلك حياة ثقافية فكرية نمت على وجه متكرر، من شتى صنوف الصراعات السياسية التي كانت تختفي وراء الصراع الديني المذهبي الذي اشتدت أتونه ضمنها لتكشف عن حروب وفتن ذهب ضحيتها خلق كثير ولم يسلم منها علماء الأمة وفقهائها.

وعمل أمراء هذه الدولة على عدد من الأسباب التي تساعد على البناء المعرفي والعلمي لكيانها، بالرغم من أن الجانب السياسي وما طبع من صراع من أجل تثبيت أقدام "بني عبيد" ومذهبهم، والذي رافقه هامش من الحرية الفكرية، تمتع بها كل الأفراد لفترة محدودة، تبعها سيل من الفتن والصراعات السياسية المطبوعة بالصراع المتعدد الأطراف، والذي تركز في الصراع المذهبي، من أجل سيطرة وانتصار فكرة واحدة، إلا أن هذا الصراع ولد وأفرز إبداعاً مغرباً في شتى صنوف المعرفة، ترعرع في عهد الدولة العبيدية ونى وازدهر في عهد الدولتين الصنهاجية والحمامية، وهذا كله بفضل أمراء هذه الدولة وعنايتهم الفائقة بالعلم والعلماء.

أولاً: الدولة العبيدية القياح والأفول في المغرب الإسلامي (٢٩٦ - ٣٦٢هـ)

قامت الدولة العبيدية في المغرب الإسلامي بزعامة "عبيد الله المهدي" مدعياً أنه صاحب الحق في الخلافة وأنه حفيد "محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق"^(١). وقد مهد لقيام الدولة العبيدية إسماعيلي يُدعى "أبو عبد الله الشيعي"^(٢) وهو داعية إسماعيلي، يعود له الفضل الأكبر في تأسيس هذه الدولة، وحشد لنصرتها قبيلة (كتامة)^(٣) التي بفضلها نجح "أبو عبد الله" في الثورة على الأغلبية ودك دولتهم بدخوله مدينة "رقادة" «يوم السبت مستهل



أمراء الدولة العبيدية ودورهم في النهضة الثقافية والفكرية في المغرب الإسلامي

عبد المالك مغشيش

أستاذ مساعد الأدب المغربي القديم
جامعة الطارف
الجمهورية الجزائرية



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد المالك مغشيش، أمراء الدولة العبيدية ودورهم في النهضة الثقافية والفكرية في المغرب الإسلامي- دورية كان التاريخية- العدد السابع عشر: سبتمبر ٢٠١٢، ص ٧٩ - ٨٤.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

١/٢- عبيد الله المهدي "سعيد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح" (٢٩٧ - ٣٢٢هـ):

وهو أول من تسلم قيادة دولة العبيديين، «واسمه الأصلي سعيد، ولد "عبيد الله بـ"سلمية" الواقعة قرب مدينة حماة بسورية، وقيل ببغداد سنة ستين ومائتين»^(٦). وقد دُعي إلى إفريقية بعد أن لقيت الدعوة الإسماعيلية نجاحًا في اليمن بفضل "ابن حوشب"، والذي تغلب على معظم أرجائها، حيث بعث دعائه إلى الإمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب، و"ابن حوشب" هذا أرسله "أبو سعيد محمد" أخو "أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح" سنة ٢٧٠هـ إلى اليمن من السلمية.

لاقى "عبيد الله" صعوبات شتى حتى استطاع الوصول إلى "رقاده" سنة ٢٩٦هـ. «فلقد وصل إلى مصر في زي التجار وهو يطلب تأسيس مملكة شيعية عبيدية سنة تسع وثمانين ومائتين، والطلب عليه من بني العباس حثيث وأمر القبض عليه متى ثقف، فلم يزل يتخف عن العيون ويخلص من أيدي الحكام وولاة الأمصار إلى أن وصل "سجلّماسّة" فظهر بها في سنة ٢٩٦هـ واعتقل هو ابنه "محمد" بعد أن وشي به، وسجنه "اليسع بن مدارا" أمير "سجلّماسّة". وظل في سجنه حتى أطلق سراحه على يد "أبي عبد الله الشيعي" الذي فل جموع بني الأغلب برقاده»^(٧). «وواصل زحفه يملأ الأرض من الخيل والرجال حتى وصل "سجلّماسّة" سنة ٢٩٦هـ وحازها وافتتحها، فاستنقذ عبيد الله وابنه، وألبسه ثيابًا نفيسة فاخرة، وقاد له فرسًا عتيقًا وسلم عليه بالإمامة وكان ذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٢٩٧هـ»^(٨).

وتوجه إلى رقادته، «وعندما وصل عبيد الله إلى القيروان تلقاه أهلها بسلام الخلافة اعتقادًا منهم بأنه علوي فاطمي، ولم يلبث أن قسم رؤساء كتامة، الذين ساعدوه على إقامة دولته أعمال هذه الدولة، ثم دون الدواوين وجبى الأموال واستقرت قدمه في تلك البلاد»^(٩). وقد أنشدته الشعراء في بيعته بالخلافة ومنهم "سعدون الوريثي"^(١٠) بقوله:

هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَضَعَعْتُ لِقُدُومِهِ أَرْكَانَ كُلِّ أَمِيرٍ

هَذَا الْإِمَامُ الْفَاطِمِيُّ ، وَمَنْ بِهِ أَمِنْتَ مَغَارِبُهَا مِنَ الْمُحْذُورِ^(١١)

كما كان، فيما مدح به المهدي من الكفر فاستجازه، شعر "لمحمد البديل"^(١٢):

حَلَّ بِرَقَادَةِ الْمَسِيحِ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحٌ

حَلَّ بِهَا أَحْمَدُ الْمُصَفَّى حَلَّ بِهَا الْكَبِيثُ وَالذَّبِيحُ

حَلَّ بِهَا اللَّهُ دُوَّ الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رَيْحٌ^(١٣)

ولم يكتف "عبيد الله" بما فعل، بل طمع في السيطرة على مصر بعد انتصار جيوشه بالسيطرة على برقة تحت قيادة ولي عهده "أبي القاسم"، و"حباسة بن يوسف"، أحد زعماء كتامة. وقد واصلت جيوش المغرب سيرها إلى الإسكندرية، فاستولت عليها وسارت على الوجه البحري، ولكن الخليفة "المقتدر العباسي" بعث جيشًا كبيرًا

رجب سنة ست وتسعين ومائتين فنزل ببعض قصورها وفرق دورها على كتامة ونادى بالأمان فرجع الناس إلى أوطانهم وأخرج العمال إلى البلاد»^(١٤).

وبذلك انتهى عهد بني الأغلب الذي استمر خلال الفترة (١٨٤ - ٢٩٦هـ / ٨٠٠ - ٩١٠م)، وسقطت هذه الدولة التي كانت تخضع روحياً للخلافة العباسية، وقامت الدولة العبيدية على أنقاضها. والسبب المباشر في سقوط هذه الدولة وأفول نجمها، هو مما لا شك فيه سياسة القمع والاضطهاد والمعاملة القاسية للشعب، وأخذها له بالعنف والتضييق عليه في المغارم والإتاوات والضرائب الباهظة، بالإضافة إلى إثارة المشاعر العرقية بالنداء للعرب والعروبة، مع اتخاذ الجند المأجور الذي لا هم له سوى الطمع والجشع، فلا حمية دينية تبعثه ولا حفيظة، أو حماسة وطنية تجرؤه إنما هو أجير بطنه.

ما إن استقرت الأوضاع للعبيديين بالقيروان - إفريقية - واطمأن المهدي لسلطته، حتى أخذ يوجه جنده نحو المناطق الغربية من المغرب الإسلامي، ليتم له أمر المغرب كله، فلم تلبث أن هوت المدن أمامه واحدة تلو الأخرى، ولتعلن ولأول مرة في التاريخ اتحاد دول المغرب العربي تحت لواء دولة واحدة وسلطة مركزية مستقلة عن الخلافات الموجودة يومئذ: خلافة العباسيين ببغداد، وخلافة الأمويين بالأندلس.

ولما عزم "المعز" على الانتقال إلى مصر استخلف "يوسف بن زيري الصنهاجي" زعيم قبيلة صنهاجة، وفارق "المعز" "يوسف" متوجهًا إلى "مصر"، وكان ذلك على هذا النحو: "في يوم الاثنين لثمان من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة دخل "المعز لدين الله" إفريقية، ثم دخل طرابلس في ربيع الأول من سنة 362 هـ ليُرحل عنها في ربيع الثاني. ووصل إلى سرت في اليوم الرابع من جمادى الأولى، ورحل عنها ونزل بقصره الذي بني له في "إجدابية". ثم رحل عنها ونزل بقصره المعروف بالمعزية - ما يعرف بالمعزيات اليوم في الجبل الأخضر"^(١٥). وبعد انتقالها إلى مصر اتخذت القاهرة عاصمة لها. وكان هذا آخر عهد للسلالة العبيدية بالمغرب الإسلامي، وآخر أمراء بالمنطقة "المعز لدين الله العبيدي الفاطمي"، ولنا أن نتوقف عند أمراء بني عبيد في المغرب لنستعرض أهم محطات حياتهم الإيجابية منها والسلبية.

ثانيًا: أمراء الدولة ودورهم في النهضة الثقافية والفكرية

ما إن سلّم "أبا عبد الله الشيعي" مقاليد الحكم لمولاه "عبيد الله" حتى أعلن عن قيام الدولة العبيدية في المغرب الإسلامي، هذه الدولة التي لم يُكتب لها البقاء في المنطقة أكثر من نصف قرن (٢٩٧ - ٣٦٢هـ)، حيث تعاقب عليها أربعة أمراء من السلالة العبيدية وهم:

صاحب هذا الفاسق وقاتله يعني - أبا يزيد-^(٢٨) ويتضح من هذا الأمر أن القائم لقي صعوبات في سياسته ولم يستطع التغلب على المعارضين. توفي "محمد القائم" يوم الأحد الثالث عشر من شوال سنة ٣٣٤هـ، حيث كانت مدة خلافته اثنا عشر سنة وسبعة أشهر، وعمره خمس وخمسون سنة. وسُرت وفاته خوفاً من ضعف عزائم جنده في قتال صاحب الحمار^(٢٩).

وقد اشتهر "القائم" بالشجاعة، ورباطة الجأش، وباستطاعته التأثير على سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب، كما كان يقرض الشعر مبادرة، ويجيد فيه، فمن ذلك ما قاله وهو مقيم بأرض مصر:

طَرِبْتُ، وَلَمْ أَطْرَبْ إِلَى الْخُرْدِ الْغُرْبِ
وَمَا الْهَزَلُ مِنْ شَأْنِي، وَلَا اللَّهْوُ لِي أَرْبُ
فِيَا مُعْرِضاً عَنِّي، وَلَيْسَ بِمُنْصِفِي
وَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ الْمُبِينُ لِمَنْ رَغِبَ^(٣٠)

كما أنشأ بوادي صلاف قرب تاهرت في شهر ربيع الأول سنة ٣١٦هـ قصبته التي يقول في مطلعها:

سَلَامٌ عَلَى آلِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ وَشِيعَتِهِ أَهْلِ النَّبِيِّ وَالْفَضَائِلِ
نَجِيَّةً مَنْ أَمْسَى بِتَاهِرْتِ قَائِماً بِحَقِّهِمْ يَنْ الْمَلَأَ وَالْقَبَائِلِ^(٣١)

ويمكن القول: أن عهده كان مليئاً بالفتن الداخلية، نتيجة سوء سياسته من جهة وتلك الرواسب المستفحلة منذ عهد المهدي، لكنه تمكن بكل صرامة أن يخمدتها بكل ما أوتي من قوة، غير أنها تركت طابعها السيئ، وكلفت ابنه عناء ومشاق كبيرة، لم يتغلب عليها إلا بشق الأنفس وجهود مضنية وتضحيات جسيمة.

٣/٢- المنصور بنصر الله إسماعيل (٣٣٤ - ٣٤٣هـ/ ٩٤٥ - ٩٥٢م):

لما توفي القائم سنة ٣٣٤هـ، خلفه ابنه "أبو الطاهر إسماعيل" الذي تلقب "بالمصور" «ولد بالمهدية» سنة ٢٩٩هـ، وقيل سنة ٣٠٢هـ، وولي وله اثنان وثلاثون سنة على الأرجح^(٣٢)، وقد اشتهر المنصور بالشجاعة ورباطة الجأش، وباستطاعته التأثير على سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب. قال عنه "الذهبي": «كان بطلاً شجاعاً، رابط الجأش فصيحاً مفوهاً يرتجل الخطب...»^(٣٣) كما كان يقرض الشعر، ويجيده كما هو الحال مع أبيه وجده، إلا أن ما وصل إلينا منه من خلال المصادر لا يعدو عن خمسة عشر بيتاً، وهذا قليل بما عرف عنه. ومن شعره إلى ابنه وولي عهده، المعز لدين الله:

كَتَابِي إِلَيْكَ مِنْ أَقْصَى الْغُرُوبِ وَشَوْقِي إِلَيْكَ طَوِيلٌ طَوِيلٌ
أَجُوبُ الْقِفَارَ وَأَطْوِي الرِّمَالَ وَأَحْمِلُ نَفْسِي لِهَوْلِ مَهْوُلٍ^(٣٤)

وعندما مات أبوه "القائم" أخفى نبأ موته عن جيشه حتى لا يؤثر على حماسه في إخماد ثورة "أبي يزيد مغلد بن كيداد". وفي عهده انقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهده، لأن

مقداره أربعون ألف جندي أحل الهزيمة بالعبيدين وأرغمهم على العودة إلى المغرب. «وفي سنة ٣٠٧هـ عاود "أبو القاسم ابن المهدي" المحاولة مرة أخرى واستولى على الإسكندرية، فأرسل الخليفة العباسي خادمه "مؤنس" على رأس جيش فالحق بهم الهزيمة، وأحرق كثيراً من مراكبهم في البحر، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم سنة ٣٠٩هـ.

وخلص لعبيد الله الأمر، وصفا له الملك فملك عبيد الله إفريقية كلها والمغرب بأسره وطرابلس، وجزيرة صقلية، والإسكندرية والفيوم»^(٣٥). أقام عبيد الله المهدي بالقيروان-حاضرة لدولته- لغاية سنة ٣٠٤هـ، حيث اختط مدينة "المهدية"^(٣٥) جنوب القيروان، وقد ظل بها. "مات" عبيد الله" يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ. ولقد دام عهده أكثر من أربع وعشرين سنة، منذ أن دخل رقاده خليفة في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ إلى أن توفي سنة ٣٢٢هـ^(٣٦). وذكر "القاضي النعمان": "أن القائم أذن بالكاء عليه في مختلف الأمصار وواصل الحزن عليه طول حياته"^(٣٧) وكانت وفاته من دواء سقاه إياه الطبيب "ابن الجزار"^(٣٨) لنقرس أصابه^(٣٩)، وهنا يحتمل أن يكون موته بسبب سم، وخلفه ابنه القاسم وتلقب بالقائم. وقال يرثيه الشاعر "ابن الصقيل"^(٤٠):

إِمَامِي الَّذِي إِخْتَرَمْتُهُ الْمَثُونُ لَوْ قَدْ تَرَى أَنَّهُ، إِسْتَحْبَبْتُ
فَلَيْتَ الْحَوَادِثَ لَمْ تَخْتَرْهُ^(٤١) وَلَيْتَ يَدَ الذَّهْرِ قَدْ شَلَّتْ^(٤٢)

٢/٢- القائم (بأمر الله) (٣٢٢ - ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ - ٩٣٤م):

كنيته أبو القاسم بن عبيد الله، «ولد بسلمية ويومع يوم مات أبوه عبيد الله، وعمره إذ ذاك اثنان و أربعون سنة»^(٤٣)، عهد إليه والده في حياته، وسماه ولي عهد المسلمين. وكان يظهر السرور به إذ رآه ويتمثل كثيراً إذا طلع عليه فيقول شعراً:

مُبَارَكُ الطَّلَعَةِ مِثْمُونُهَا يَصْلُحُ لِلدُّنْيَا وَالْدِّينِ^(٤٤)

كان القائم كغيره من الملوك العبيدين، ينقم على السَّيِّئِينَ حتى أنه أمر بلعن الصحابة - رضوان الله عنهم-، وقيل أنه أمر بتكذيب كتاب الله. لقد اتصف عهد القائم في مجال السياسة الداخلية بالشدة والصرامة، واعتبر أكثر شراً من المهدي. وقد أثار غضب المغاربة، وخاصة "الخوارج" منهم الذين ثاروا على العبيدين، وكانت أشد هذه الثورات خطراً وأشدّها بلاء تلك الثورة التي أشعل نارها «أبو يزيد مغلد بن كيداد»^(٤٥) في سنة ٣٢٢هـ، والتي استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد إلا في عهد ابنه "المنصور". ومما قام به في مجال السياسة الخارجية شنه حملات عسكرية ضد الروم، ففي سنة ٣٢٣هـ سير حملة بحرية فتحت مدينة جنوه -على الساحل الجنوبي لإيطاليا-، وافتتح مدائن الروم، وغزاهم بناحية الأندلس^(٤٦).

"وفي شهر رمضان من سنة ٣٣٤هـ ولي القائم ابنه إسماعيل ولاية عهده، وفوض إليه أمره وأدخل جماعة من وجهاء "كتامة" وقال لهم: "مولاكم وهو ولي عهدي، والخليفة من بعدي، وهو

بتسعة ثم نرمهم بالعاشر. قال: ولم؟ قال: لأنكم غيرتم دين الأمة وقتلتم الصالحين وأطفأتم نور الإلهية وادعيتهم ما ليس لكم. فأمر بإشهاره في أول يوم، ثم ضرب في اليوم الثاني بالسياط ضرباً شديداً مبرحاً، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، فجيء يهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن، قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات، رحمه الله».^(٤٣)

والمعز إلى جانب ظلمه وبطشه ورفضه فقد «كان مثقفاً يجيد عدة لغات منها الإيطالية والصقلية والبربرية، كما عرف اللغة السودانية. وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ينظر العلماء ويكرمهم، فضلاً عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور».^(٤٤) وكان فصيحاً مفوهاً بطلاً شجاعاً يرتجل الخطب، ويُنسب إليه من الشعر الكثير ومنه:

أَطْلَعَ الْحُسْنَ مِنْ جَبِينِكَ شَمْسًا فَوْقَ وَرْدٍ فِي وَجْهِكَ أَطْلًا
وَكَنَّ الْجَمَالَ خَافَ عَلَى الْوَرْدِ جَفَافًا، فَمَدَّ بِالشَّعْرِ ظِلًّا^(٤٥)

كما عرف بالتأني، والحزم، وقوة الشخصية، والاعتزاز بالنفس، حتى أن البعض ذكر أنه أمر المؤذن أن يقول في أذانه: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن معداً رسول الله)، ويحتمل أن يكون هذا صحيحاً لأن شاعره "ابن هاني" مدحه وبالح في مدحه، وكما قال:

هَذَا الَّذِي تُرْجَى النِّجَافُ بِحَبِّهِ وَبِهِ يُحْطُ الْإِصْرُ وَالْأَوْزَارُ
هَذَا الَّذِي تُجْدَى شَفَاعَتُهُ غَدًا حَقًّا وَتَحُمُّدُ أَنْ تَرَاهُ النَّارَ^(٤٦)

وذكر «أن المعز ألف كتاباً بعنوان تأويل الشريعة، كما أن "النعمان" أكد أنه فيما كتب، قد تأثر به وتلقى العلم منه وصدر عن وحيه».^(٤٧)

وقد رفع الدعاة شأن المعز وعظموه، وقالوا إنه أمر بتجديد الشريعة لأنه سابع إمام من أئمة دور الستر، أي ابتداء من أول إمام بعد "محمد بن اسماعيل"، وعندهم أن الإمام السابع يمتاز بقوة كبيرة لأنه خاتم دور الستر. وبالرغم من قيام عدة ثورات ضده، في مختلف المناطق إلا أنه تمكن من إخمادها والسيطرة عليها بوسائل سياسية وعسكرية، حتى أتاه المخالفين طائعين. فدانت له بذلك البلاد والعباد على العموم. ولذلك اعتبر عهده أزهى عهود الخلافة العبيدية، نظراً للهدوء الذي ساد عهده، والمنجزات الكثيرة التي حققها للدولة، في جميع النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية، وامتد نفوذه على كامل بلاد المغرب ثم امتد إلى مصر والشام فالحجاز، وهدد العباسيين في عقردارهم، «وأجبر الروم على طلب الهدنة».^(٤٨)

وبالرغم من كل النجاحات التي حققها "المعز" إلا أن الشيء الذي كان يحز في نفسه، ويقض مضجعه هو عدم اطمئنانه من أهل المغرب من جهة، ومن جهة أخرى خلافه مع أفراد العائلة العبيدية. هذه العوامل حفزته على فتح مصر، كي ينتقل إليها ويستبدل أهل المغرب باتباع آخرين أكثر طاعة واسلس انقياداً. وذكر أن عهد الدولة العبيدية كان مليئاً بالثورات أكثر من عهد أي دولة أخرى، ولعل أبرز إنجازاته على الإطلاق وأعظمها تتمثل في انتقالها

همه كان القضاء على ثورة أبي يزيد، «ثم قدر له أن يهزم جيش "أبي يزيد" وطارده إلى أن نزل في قلعة "في جبال المعاضيد" شمال الحضنة، وقبض عليه، ثم ساقه إلى المهديّة حيث مات أبو يزيد متأثراً بجراحه في محرم سنة ٣٣٦هـ. فأمر بسلخه وحشو جلده قطعاً، وخيطت جثته، وقدر لحمه وملح وأمر بحمل جميع ذلك».^(٤٩) قضى "المنصور" البقية الباقية من خلافته في إعادة تنظيم بلاده، فأنشأ أسطولاً كبيراً وأسس مدينة "صبرة" وسماها باسمه "المنصورية" سنة ٣٣٧هـ واتخذها حاضرة لدولته. ومنذ ذلك الحين أصبحت حاضرة العبيديين. ورغم كثرة مشاكل المنصور الداخلية، فإنها لم تنه عن القيام بنشاطات أخرى: من ذلك أنه لعب دوراً هاماً في إعادة «الحجر الأسود»^(٥٠) إلى مكانه، فنال بذلك شرفاً وسمة طيبة على صعيد العالم الإسلامي، «وقال القرامطة أنهم اخذوا الحجر الأسود بأمر، فأعادوه بأمر».^(٥١)

من خلال ما سبق يتجلى لنا؛ أن المنصور حكم في فترة حساسة وصعبة جداً خاصة على الجبهة الداخلية، ومع ذلك استطاع أن يرسي سفينة دولته إلى بر الأمان بل وأعاد بعثها وتقويتها وتعزيز مكاسمها وهيبته. حيث يعتبر المؤسس الثاني للدولة فهياً بذلك جواً مناسباً لخلفه وولي نعمته ابنه المعز، «حكم المنصور سبع سنين وسبعة عشر يوماً، وتوفي في يوم الجمعة من شوال سنة ٣٤١هـ، وقُبر بالمهديّة، وقيل أنه مات بإسهال من قرحة كانت في كبده».^(٥٢)

٤/٢- المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ):

أبو تميم معد ابن المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي، «ولد بالمهديّة في رمضان سنة ٣١٩هـ»، وقيل: «ولى الأمر بعد أبيه وذلك يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر شوال، وقيل يوم الجمعة سابع عشر شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة».^(٥٣) وقيل أنه أقام في تدبير الأمور، كاتماً وفاة والده المنصور شهراً وبعض الشهر ولم يعلن عنها إلا في خطبة عيد الأضحى، وفي القسم الثاني منها. وكان عمره عند تولي الحكم ثلاث وعشرون سنة وخمسة أشهر وسبع عشر يوماً، وقد نال نصيباً وافراً من مدح الشعراء، وكان "ابن هاني" أكثرهم في ذلك ومما قال فيه:

صَغَائِرُ أَفْعَالِ الْمُلُوكِ عَظَائِمُ وَأَعْرَاسُهَا فِي النَّكَثَيْنِ مَاتِمُ
هُوَ الْمَلِكُ مَا أَدْرَاكَ مَا الْمَلِكُ، دُونَهُ تَمَرُ حَلَاوَاتٍ وَتَخْلُو عِلَاقِمُ^(٥٤)

في عهده دانت له قبائل البربر كافة والمغرب كلّ، فلما رأى الأمر كذلك فكّر بفتح مصر، فبعث بين يديه "جوهر الصقلي" حتى أخذها من "الإخشيدى" بعد حروب جرت بينهما، وذلك في سنة ٣٦٢هـ، وهو أول من ملك الديار المصرية من الملوك العبيديين. وقد أورد "ابن كثير" في (البداية والنهاية): «أن المعز أحضر بين يديه الزاهد العابد الورع الناسك التقي "أبو بكر النابلسي"،^(٥٥) فقال له المعز: بلغني أنك قلت لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين (أي العبيديين) بسهم. فقال: ما قلتُ هذا. فظن أنه رجع عن قوله، فقال: كيف قلتُ؟ قال: قلتُ ينبغي أن نرميكم

الهوامش:

- (١) إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب: سابع الأئمة الاثني عشر، أشهر الفرق الشيعية. يدعي العبيديون انتسابهم لأهل البيت عن طريق الإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق، ومنه جاءت الطائفة الإسماعيلية. (ينظر: ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق، جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ط، ١٩٨٤، ص ١٩. المقرئ: اتعاط الحنفاء، ج ١، تحقيق: جمال الدين الشيال، طبعة دار التحرير، القاهرة، د. ط، ١٩٦٣، ص ١٦. الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، تحقيق: أحمد فهمي، دار المعارف، القاهرة، د. ط، ١٩٦٧، ص ١٢٧٢. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩، ص ٦ - ١٠).
- (٢) المقرئ: اتعاط الحنفاء، ص ١٩ وما بعدها. (ينظر: ابن حماد: المصدر السابق، ص ١٩).
- (٣) كتامة: قبيلة من قبائل البربر تسكن أعلى الجبال الواقعة ما بين مدينة القل وبجاية، كانت معقلا للدعوة الباطنية الإسماعيلية، والتي ناصرتها. وحسب "ابن خلدون" فإن أصل هذه القبيلة من ولد كتام بن برنس وأنها من حمير وكانوا موطنين في أرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غرباً إلى جبال الأوراس من ناحية القبلة. (ينظر: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط ٢، ١٩٨٦، ص ٦٤. ابن حماد: المصدر السابق، ص ١٩. الإدريسي: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق: محمد حاج صادق، المكتبة الجامعية، الجزائر، د. ط، ١٩٨٣، ص ١٢٦).
- (٤) القاضي النعمان: المصدر السابق، ص ٢١٣ - ٢٤٩.
- (٥) محمد الصلابي: الدولة العبيدية في ليبيا، دار البيارق، عمان، الأردن، ط ١، ١٤١٨ هـ، ص ٨٢.
- (٦) ابن حماد: المصدر السابق، ص ١٨.
- (٧) نفسه، ص ٢٠.
- (٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨ نشر دار صادر بيروت، ٨، د. ط، ١٩٧٩، ص ٤٨. (ينظر تفاصيل استنفاذ المهدي: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٢٩).
- (٩) المقرئ: اتعاط الحنفاء، ج ١، ص ٤٢. (ينظر: المزيد حول دخوله رقادة واستلامه زمام الحكم في: القاضي النعمان: المصدر السابق، ص ٣٠١ - ٣٠٣، ابن الأثير: رياض النفوس في طبقات علماء أفريقية، نشر: البشير البكوش، بيروت، د. ط، ج ٢، ١٩٨١، ص ٤٨ - ٥٤. أبو زكرياء: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق: إسماعيل العربي، د.م، ط ٣، ١٩٨٤، ص ١٦٤ - ١٦٧).
- (١٠) الشاعر نسبته إلى ورقلة كان سني مالكي وانقلب في ولانته واعتنق الدعوة الشيعية. (ينظر القصيدة في المالكي: رياض النفوس، ج ١، ص ٥٠١. لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د. ط، ١٩٧٩، ص ٢٣٠. القاضي النعمان: المصدر السابق، ص ٣٠٠ - ٣٠٢).
- (١١) محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، ص ٣٦.
- (١٢) محمد اليعلاوي: المرجع نفسه، ص ٣٥.
- (١٣) المرجع نفسه، ص ٣٤.
- (١٤) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٥٨.
- (١٥) ينظر: المقال، ص ١٤.
- (١٦) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٢٦.
- (١٧) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٣١. (ينظر أيضاً: المقرئ: المصدر السابق، ص ٢٢١).

إلى مصر، «وقد بدأ يخطط لذلك ويتحين الفرص منذ سنة ٣٥٥هـ»^(٤٩)، «فجهز الجيوش، وأمر بحفر آبار الماء في الطريق إليها، وأغدق الأموال، حتى دانت له بفتحها علي يد قائد جيشه جوهر، وكان ذلك يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٥٨هـ وبعد أن استتب الأمن فيها والنظام شدّ الرجال إليها وكان مسيره وخروجه في أواخر شهر شوال سنة ٣٦١هـ، حاملاً معه أموالاً ومتاعاً هائلاً، كما أخذ معه تواييت آبائه وأجداده، وواصل سيره حتى دخل الإسكندرية في آخر شهر شعبان من سنة ٣٦٢هـ»^(٥٠) وبذلك يسدل الستار عن عهد دولة بني عبيد في بلاد المغرب العربي الإسلامي.

قضى المعز الشطر الأكبر من خلافته في بلاد المغرب، ولم يبق في مصر أكثر من أربع سنين إلا قليلاً، «وجاء الذي لا بد منه، ولا محيى عنه، ولا راد له، وكما ذكر أنه أصيب بمرض نفسي، فحمّ منه وتوفي في القاهرة يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ، وكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام أما ولايته بمصر فهي أربع سنين وسبعة عشرة يوماً»^(٥١).

خاتمة

يعد أمراء "الدولة العبيدية" أهم رافد مشكل للملح العام للحياة السياسية والثقافية والفكرية، التي نشأت في ظلها دولتهم التي ترامت أطرافها لتسيطر على بلاد المغرب الإسلامي لفترة زمنية ليست باليسيرة، وراحت تمر من قوة إلى قوة حتى أوصلتها درجة قوتها إلى مصر لتطوى بذلك صفحة حكمها للمغرب وتفتح أخرى بالمشرق، وتترك حكمه لحلفائها الصنهاجين الذين واصلوا المسيرة المشرقة من عهد النهضة الثقافي والفكري. وكان دور أمراء الدولة بارزاً ومشهوداً له، في إقبال الناس على المعارف والاشتغال بالعلوم والآداب، وهذا بإغداقهم العطايا على الأدباء والشعراء والعلماء، ومنحهم الصلات وتقريتهم في بلاطاتهم، وتشديد مدن لتكون حواضر علمية وثقافية واقتفاءهم في ذلك أثر النهضة العربية الظاهرة إذ ذاك بالمشرق. فبحق كان أمراء "العهد العبيدي" الركيزة الأساسية في انطلاق النهضة الثقافية والفكرية، وفي جميع الميادين بالرغم من الفتن والحروب التي لم تهدأ طيلة حكمهم للمغرب الإسلامي.

(٤٢) محمد بن علي النابلسي: كبير أهل مدينة الرملة، وفقهه مطيع في بلده، وكان فقهاً زاهداً. مالكي المذهب ذا رئاسة وظهور. وكان شديداً على بني عبيد، قُتل سنة ٣٦٣. (يُنظر: الذهبي: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٨). القاضي عياض: ترتيب المدارك وترتيب المسالك، ج ٢، مكتبة المشكاة، وزارة الأوقاف المغربية، المغرب، د. ط، د. ت، ص ٤٧٧ - ٤٧٩).

(٤٣) ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ج ١١، د. ط، د. ت، ص ٨٤.

(٤٤) القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، ص ٢١٥.

(٤٥) محمد اليعلاوي: ابن هاني المغربي الأندلسي: شاعر الدولة الفاطمية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د. ط، ١٩٨٥، ص ٢٥٥.

(٤٦) محمد اليعلاوي: ديوان محمد بن هاني الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤، ص ١٨١. (أي يشفع للمؤمنين ويقهم عذاب النار وجهنم تخمد بأمره).

(٤٧) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٢٧.

(٤٨) القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، ص ٣٢٣.

(٤٩) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٣٣٧. (ينظر أيضاً: ابن حماد: المصدر السابق، ص ٤٨ - ٥٤).

(٥٠) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٦٢٠ - ٦٢٥. (ينظر أيضاً: ابن حماد: المصدر السابق، ص ٤٨ - ٥٤، المقرئ: المصدر السابق، ص ٤٢ - ٤٤).

(٥١) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٥٤. (ينظر تفاصيل المرض النفسي الذي أصاب المعز في: هامش ابن حماد: نفسه ص ٥٤).

(١٨) ابن الجزار القيرواني (ت ٤٠٠هـ): كان ابن الجزار طبيباً بارعاً ومؤلفاً مكثراً في موضوعات مختلفة، فمن كتبه في الطب: زاد المسافر، وقوت الحاضر (طعام الإنسان في السفر والحضر). (ينظر: عمرفروخ: تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ج ٤، ط ٤، ١٩٩٧، ص ١٩٢ - ١٩٣).

(١٩) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢٠) هو عثمان بن سعيد (أو سعد) الصيقل: كان أبوه مولى للأغالبة. نشأ في عمل السيوف مع أبيه، ثم صحب أهل العلم والأدب ويبدو أنّ تشيعه كان ظرفياً، كما يرى صاحب رياض النفوس، استقدمه الحكم الثاني إلى الأندلس ومات بها سنة ٣٦٦هـ (ينظر: المالكي: رياض النفوس، ج ٢، ص ٤٧٧).

(٢١) التركيب يعني به: لو ترى أنه المهدي لاستحييت منه وتراجعت.

(٢٢) محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص ٧٦.

(٢٣) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٢٩. (ينظر التفاصيل: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٣١ - ٣٣٥).

(٢٤) القاضي النعمان: نفسه، ص ٣٢٤.

(٢٥) مخلد بن كيداد الخارجي (صاحب الحمار) ت ٣٣٦هـ: كان يقتصر على ركوب حمار أشهب، ولذلك كان يدعى صاحب الحمار. كان على مذهب الخوارج، قام ثائراً في وجه العبيديين فهدم وخرّب واركب من الجرائم ما يندى له الجبين، واجتمع عليه الناس وتبعه في بادئ الأمر كثير من البربر، لكن ثورته فشلت وقبض عليه "المنصور"، وقام بقتله وسلّخه وكان هذا سنة ٣٣٦هـ (ينظر: القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، تحقيق: محمد اليعلاوي، إبراهيم شيوخ، الحبيب الفقي، المطبعة الرسمية التونسية، د. ط، ١٩٧٨، ص ١٦٢. ابن حماد: المرجع السابق، ص ٢٥ - ٤٤).

(٢٦) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٢٩ - ٣٢.

(٢٧) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٢٤٩. (ينظر أيضاً: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٣٣).

(٢٨) محمد الصالح مرمول: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ط، ١٩٨٣، ص ٩٠.

(٢٩) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٣٢. (ينظر أيضاً: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٣٤ - ٣٣٥).

(٣٠) محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص ٨١. (ينظر التفاصيل: محمد اليعلاوي: المرجع نفسه، ص ٨٥).

(٣١) محمد اليعلاوي: المرجع السابق، ص ٩٥. (ينظر: القصيدة في المرجع نفسه).

(٣٢) محمد الصالح مرمول: المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤١٣هـ، ج ١٥، ص ١٥٧.

(٣٤) محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص ١٦١.

(٣٥) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٤٥. (ينظر: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٣٤. المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤).

(٣٦) هجم القرامطة على مكة المكرمة، وقاموا باقتلاع الحجر الأسود ونقلوه إلى الأحساء بالبحرين سنة ٣١٨هـ، ولم يعيده إلا سنة ٣٣٩هـ بأمر من المنصور العبيدي. (ينظر: المقرئ: اتعاط الحنفاء، ج ١، ص ٣٥).

(٣٧) المقرئ: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣٨) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٣٣. (القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٣٥. المقرئ: المصدر السابق، ص ٣٧).

(٣٩) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٤٨.

(٤٠) نفسه، ص ٤٨.

(٤١) محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص ٣٢٣.